تحرير المرأة

أيتها المرأة انتبهى.. لقد بدأ عصر خطير اسمه «عصر الرجل»..

هكذا حذر مصطفى محمود المرأة فى كتابه «فى الحب والحياة»..

فلم تكن المرأة قبل هذا العصر فى حاجة إلى أى مجهود لاجتذاب الرجل، فهو دائما منجذب إليها بغريزته، يتلصص عليها؛ فيظل واقفا بالساعات فى الشارع، على أمل أن يظهر ظلها من خلف المشربية التى صنعت خصيصا لكى ترقب هى كل من فى الشارع، ولا يراها أحد، أو قد تظهر يدها وهى تمدها إلى صينية القلل، أو إلى أصيص الزهر، وكان الطريق الوحيد للوصول إليها هو الزواج الصاخب، والمباغت للطرفين..

ولكن كيف تغير الحال؟..

نشأ زعماء النهضة النسائية، وتربوا فى عصر الحريم، والحرمليك؛ فعندما اجتاح الأتراك العثمانيون العالم العربى، وجعلوا أنفسهم خلفاء، وأمراء على كافة العرب، والمسلمين، بعد أن اكتسحت جيوشهم بعض البلاد الأوروبية التى كانت فيها المرأة ملكا مستباحا للاقطاعى صاحب الأرض، حتى لو كانت متزوجة من أحد الفلاحين، أو الأقنان – كما أطلقوا عليهم فى أوروبا العصور الوسطى - ولأن عصرهم(الأتراك العثمانيين) كان نكبة على مستعمريهم حيث تميز بالفتن، والمؤامرات، والبذخ، والترف الزائد الذى كان من سماته المميزة المرأة، التى حرصوا على أن تبقى جاهلة، متخلفة لتكون أداء فقط للمتعة، والمؤامرات يوجهونها حيث يشاءون، فأنشأ لها الحكام القصور الخاصة، ثم تبعهم المحكومون بتخصيص الحرمليك، فأضافوا إلى جهلها، وتخلفها السجن بين الجدران الأربعة كتحفة، أو قطعة من الأثاث، وكان معهن الجوارى ذوات التربية الخاصة التى بموجبها تفعل ما تؤمر دون

obeikandl.com

اعتراض، حتى إنها تنسى أهلها، ومعارفها، ولا يكون لها من الدنيا سوى سيدها الذى اشتراها، أو أهديت إليه؛ فانسحب هذا الأمر العبودى على الزوجات، والبنات الأحرار، ولا مانع لها من رؤية الرجل إذا كان سيحرسها، ويسليها، أو يقوم بالأعمال الشاقة التى لا يستطيع الإماء القيام بها بشرط أن تُنزع منه رجولته(خَصى) بلا ذنب جناه سوى أنه عبد يُباع، ويُشترى، فيقوم من اشتراه بالتحكم فى غريزته من أجل من يتحكم فيهن من الحريم..

وإذا ما أكرموها بشىء من التعليم فهو فقط لحسن الهندام، والأحاديث المنمقة، وطريقة المشى، والوقوف، والجلوس(ما يطلق عليه الآن فن الاتيكيت)، وحفظ، وإلقاء بعض الأشعار لإرضاء سيدها عندما تسرى عنه، وعن ضيوفه فتتحفه بما تعلمت لتتميز قليلا عن تلك التى جعلوها للمتعة، والولادة فقط، وكل هذا - فى النهاية - لحساب النخاسين لزيادة أسعار بيع الجوارى المتميزات..

كانت تلك هى البيئة التى ظهرت فيها أفكار «قاسم أمين»، وزعيمات النهضة النسائية، وهى بيئة تتميز بالاستبداد عموما؛ بيئة استعمار، واغتصاب، وقد كانت المرأة على مر العصور هى أولى مظاهر الخضوع للمغتصب، فما بال الدولة(التركية العثمانية) التى جثمت على مقدرات المنطقة العربية قرابة أربعة قرون من الزمان، وكان همها الدائب حجب رعاياها عن نسمة هواء، أو طاقة ضوء، فما بال المرأة، وفى هذا الجو طرح قاسم أمين(ذو الأصل التركى)، رأيه عن المرأة، ووضع المرأة متشبعا بفكرة تحسين حالة المرأة، غير أنه بدا من كتابه أنه يجهل حقيقة المرأة المصرية(التى نشر أفكاره فى بيئتها) جهلا تاما..

وإذا طالعنا حياة زعيمات النهضة النسائية وعلى رأسهن «هدى شعراوى»، ونشأتهن نجد أن هناك صفات مشتركة بينهن؛ وهى الحقد على مكانة الرجل، وكراهية تميزه، فقد أشارت فى مذكراتها إلى المقارنة الدائمة بينها، وبين أخيها الأصغر، وكراهة أنوثتها لحرمانها من التعليم، والحرية التى ينالها الولد - دونما ذنب للولد فى ذلك - ومن الصفات المشتركة أيضا محاولة تقليد الرجل فى كل شىء، حتى فى رجولته، والمطالع لكتاب د.نوال السعداوى «مذكرات طبيبة» يلحظ مقدار هذا الحقد العنصرى، وسرورها الطاغى وهى تقوم بتشريح جثة أحد الرجال، التى أودعت بين يديها كأمانة علمية، عليها تجاهها أمانة العلم، والطبيب الذى يأمنه الإنسان على جسمه، وعرضه، فهؤلاء الزعيمات لم ينلن درجة التعليم التى وصلن إليها إلا عن طريق الرجل، متمثلا فى الأب، أو الأخ، أو الزوج، أو كلهم معا..

ويلاحظ الدكتور فخرى فرج من كتابه «المرأة وفلسفة التناسليات» إصابتهن بثلاثة أمراض عندما

اندفعن لتطبيق أفكار قاسم أمين لتحرير المرأة؛ الأول تعصبهن الأعمى «لجنس المرأة»(العنصرية الممقوتة)، والثانى الحكم على كل النساء من واقعهن، وظروفهن، وتعليمهن دون النظر إلى واقع الأخريات، وظروفهن، أما المرض الثالث فهو الرغبة فى الزعامة، والغرور بتلك الزعامة، أما من جاروهم من الرجال فانقسموا إلى ثلاث طوائف، الأولى شعرت بضعفها عن الظهور وسط الرجال؛ فبحثوا عن الزعامة وسط النساء بتبنى أفكار الحركة النسائية، مع عدم إيمانهم بتلك الأفكار، ولا يطبقونها فى حياتهم، والثانية تؤمن بهذه الأفكار، وتتفهمها، ولكنها لا تتخلى فى الوقت نفسه عن استبداد الرجل، وحقه فى حبس المرأة، فالطائفة الأولى، والثانية تظهر صداقتهما للمرأة، وتتملقها، والثالثة لا تدرى شيئا عن هذا، ولا ذاك اللهم إلا إذا بدا أن هذه المبادئ، والأفكار يمكن أن تخدم مصالحهم الشخصية فقط، ولا تهمهم المرأة فى شىء، ولكن السؤال بعد كل هذه الضجة، وافتعال القضية؛ أين هى المرأة من كل هذا؟!..

ويتحدث د.يوسف مراد عن نصيرات تحرير المرأة فى كتابه «سيكلوجية الجنس»:

-«وإننا لا نبالغ إذا قررنا أن بعض الحركات التحريرية؛ التى يدعو إليها بعض زعيمات الأحزاب النسائية المتطرفة، صادرة عن عقد نفسية لم تجد حلها الطبيعى، فصارت تبحث عن وسائل التعويض فى ميادين تفرض على المرأة أعباء لا تتلاءم مع طبيعتها؛ فهى وسائل تعسفية للتعويض إن أرضت المرأة فى بادئ الأمر، فإنها لا تلبث طويلا حتى تضيف ألوانا جديدة من الشقاء إلى الشقاء الذى تعانيه نتيجة لجهل المربين، أو لما يعانونه - هن - أنفسهن من انحرافات نفسية»..

وينوه العقاد عن هذه القضية فى كتابه «هذه الشجرة»:

- «ولكننا لا نعرف استغلالا للمرأة هو شر من استغلال قضيتها فى ترويج المذاهب الاجتماعية التى تهدم الأسرة، وتبطل المرأة باسم المساواة بين النساء، والرجال؛ فهذه القيم التى هى مكسب الحياة النفيس من مخلفات الزمن القديم هى الثروة التى يعصف بها بعض الدعاة حين ينكرون الأسرة، وينكرون الفوارق بين النساء، والرجال، وعزا إلى كارل ماركس، وأتباعه نظرتهم إلى الأسرة فأنكروا فضلها من خلق الأواصر، والعواطف، وتوليد الحقوق، والواجبات بين الأفراد من الأقرباء، والبُعداء، ولم يعرفوا لها إلا أنها أعانت الاستغلال فى عصور الإقطاع خاصة؛ فارتبط بها نظام الميراث، وقامت عليها قواعد الملك، والادخار، والتوريث، وتعاقب السادة من النبلاء، والفرسان»..

ويقول أيضا فى كتابه «الإنسان الثانى»:

-«هذا المجتمع معركة ضروس، والنساء فيه آسيات جروحه، وضامدات كلومه، وجابرات كسوره؛ فكيف به وقد طرح آسياته المراهم، واللفائف، وتبدلن بها الخناجر، والقذائف، ثم برزن للنضال بين المتناضلين»..

إن عقدة «احتقار الجنس» هو منهج حياة زعيمات الحركات النسائية، وهن لا يحتقرن جنسهن فقط، بل يحقدن على مكانة الجنس الآخر؛ جنس الرجال، فالرجال هم الذين يحكمون العالم، وهم أبطال التاريخ، والروايات، والأساطير، والسير الشعبية، وكلهن يتقمصن أفكار «سيمون دى بوفوار» الثائرة على جنسها، وعلى جنس الرجال أيضا، والتى تقول:

-«إن آلهة الرجل كائنون فى سماء بعيدة، وحتى لكأن ليس له فى الحقيقة من آلهة، وأما بالنسبة للفتاة الصغيرة فإن الآلهة ذوو وجوه بشرية، وهى تحيا معهم تحت سماء واحدة»..

وإذا نظرنا للعالم بعد «النهضة النسائية» التى أوصلتنا إلى الدفع بالمرأة إلى أحط المواقف، وأقسى الظروف، بل أوصلتنا إلى تكليفها بمشاركة الرجل فى نشاط الحياة الصناعية، بدرجة تعجز معها - بطبيعتها - عن القيام بأعباء جهدها الجسدى، كما أوصلتنا إلى «شقاء الطفل»، وبؤسه بدليل ازدياد أعداد «الأطفال غير الشرعيين»، والمتسربين من التعليم ليلجأوا إلى العمل فى سن صغيرة لاكتساب معاشهم، وازدياد عدد أولاد الشوارع، ولم تؤد هذه النهضة أيضا إلى تحسين «حالة الأرامل»، بل إلى دفعهن بأطفالهن إلى أسواق البغاء لاكتساب ما يقتتن به، وما يغذى أطفالهن، ولم توصلنا إلى تحسين «حالة الخادمات»، بل قذفنا بالفتيات، والشابات فى قصور، ومنازل الأغنياء لتمتلئ بطونهن بثمار ملذاتهم، ثم يقذفون بهن فى الشوارع، ليَلِدن أطفالا حكموا عليهم سلفا بأن يصيروا لقطاء، ولم تخفف هذه النهضة وطأة فتك «الأمراض التناسلية» لكثافة انتشار البغاء العلنى لدرجة إنشاء نقابات للعاهرات، ومعاش عند التقاعد..

كتب محمد عيسى فى مجلة «الأهرام العربى» بتاريخ ١٧ من مارس ٢٠٠١ مستهلا مقاله بسؤال:

-«هل تأتى نهاية العالم على جناح الجنس؟.. »

فالأرقام، والإحصاءات، والحقائق تؤكد أن «الدعارة» أصبحت نشاطا عالميا رسميا، وأن ممارسة البغاء تحولت فى دول عديدة إلى مهنة معترف بها، لها قوانين، وأنظمة، وتديرها شبكة ضخمة، ولكن الجديد أن دولا عديدة باتت تلجأ إلى تقنين الدعارة بهدف محاربة شبح البطالة، والفقر، فبدلا من بقاء النساء فى البيوت بلا عمل، فلماذا لا يخرجن ليبعن أجسادهن لكل الرجال؟..

فقد عقد أخيرا فى العاصمة الألمانية المهرجان الدولى الأول من نوعه «للمومسات» للاعتراف ببيع أجسادهن كمهنة، ورفع الحاضرات شعار «العمل بشرف»، وطرحن الأوضاع السيئة التى يعشنها، وطالبن بضرورة إنشاء نقابة تحميهن..

وتبلغ عائدات هذه التجارة المليارات من الدولارات سنويا، ففى اليابان مثلا تقدر عائدات تجارة الجنس بنحو ١٪ من إجمالى الناتج القومى، وهو ما يعادل ميزانية الدفاع، وفى هولندا ٥٠٠ مليون، أما تايلاند فتصل إلى أعلى المعدلات فيما بين ٢٢,٥ - ٢٧ مليار سنويا، وقد أثارت هذه الأرقام قلق مسئولى الصحة بالأمم المتحدة خوفا من أن يؤدى ذلك إلى تزايد حالات الإيدز»..

وللإيدز حديث ذو شجون نشره أحمد بهجت فى ملحق الأهرام الأسبوعى «صندوق الدنيا» الصادر يوم ١١ من مايو ٢٠٠١:

-«خمسة وثلاثون مليون مريض بالإيدز فى العالم نصفهم من إفريقيا، حيث تصل نسبة الإصابة فى أواسط إفريقيا إلى ٢٥٪، وفى أمريكا إلى ٢٪، ويمثل ضعف العدد مقارنة بأوروبا الغربية، أما أوكرانيا، وروسيا فتصل الإصابة إلى ١٪، أما مصر فمعدل الإصابة بها ٢٪، والعلاج المتاح لوقف فيروس الإيدز متوافر فقط فى أمريكا، وأوروبا حيث يتكلف العلاج عشرة آلاف دولار سنويا أى ما يعادل ٢٠٠ مليار دولار سنويا للقارة السوداء»..

وعن علاقة الدين بهذا الوباء فى تحقيق نشرته مجلة الأهرام العربى فى ٢٤ من مارس ٢٠٠١عن «ملك اليمين» كتبت يسرا زهران على لسان الشيخ «خالد الجندى» عضو لجنة الدفاع عن الإسلام فى وزارة الأوقاف المصرية:

-«إن الرق (رق المرأة) موجود بالفعل فى المجتمع الحديث ولو بشكل غير مقنن، وصوره كثيرة مثل «زواج المتعة»، و«الزواج العرفى» بغير ضوابط، وتفشى ظاهرة البغاء، وسباقات ملكات الجمال، وعندما تستخدم المرأة فى إعلانات البيع بدءا من فرشاة الحلاقة، وانتهاء بالدبابات، وعندما يزوج أحدهم ابنته التى لا تكاد تبلغ من العمر عشر سنوات إلى شيخ طاعن فى السن من الأثرياء، وهذا نوع من الرق المدون بأوراق رسمية»..

ويعلق أحمد بهجت بملحق جريدة الأهرام صندوق الدنيا فى ٢٠ من أبريل ٢٠٠١ على خبر نقلته وكالات الأنباء عن:

-«إقلاع سفينة تقل ١٨٠ طفلا من «بنين» بإفريقيا، وقد بيعوا كعبيد فى بلادهم بسبب فقر أسرهم،

وحاجتهم إلى المال».. بأن هذا لم يكن جديدا على إفريقيا، فقد حدث هذا فى القرن الثامن عشر، وخلال عشر سنوات عندما أقلعت سفن ميناء أوروبى واحد هو «ليفربول» نحو ٩٠٠ مرة لجلب الرقيق، فاصطادت ثلث مليون رأس قيمتها ١٥مليون جنيه، وكان ربحها الصافى ١٢مليون جنيه، وكان تاجر الجملة المختص يشترى الإفريقى بثمانية جنيهات، ونصف، ويبيعه بأربعين جنيها، وكان ذلك ثمن الإنسان فى إفريقيا، ترى كام ثمنه اليوم؟..

لم يقدم «قاسم أمين» شيئاً لتحرير المرأة بقدر ما قدم أدلة كثيرة عن وجوب تحرير المجتمع المصرى ككل، وهو ما اتخذ ظاهراً جانب المرأة، الأمر الذى أثار المجتمع عليه فى هذه الفترة المتحفزة لكل ما هو أجنبى مستورد، فقد تمثل فكر قاسم أمين فى الهجوم على النظام الإقطاعى البالى، والترويج للأفكار البرجوازية..

أورد طلعت حرب فى كتابه «تربية المرأة والحجاب» فى الرد على كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» أسباب الهجوم الضارى على قاسم أمين:

١ - ظهرت بالصحف مقالة بالإنجليزية ترجمتها إلى العربية «مجلة المقتطف» لأحد علماء الهند المسمى القاضى «أمير على» يدعو فيها لمثل ما يدعو له قاسم أمين فى كتابه «تحرير المرأة»..

٢ - نوقش قاسم أمين فى هذه الأمور النسائية عندما كان يتعلم فى أوروبا، ولكنه لم يحفل بها، ولم تؤثر عليه بدليل أقواله، ومدافعاته عن حالة المرأة المسلمة، واحتجابها فى مؤلفه «المصريون» الذى رد به على كتاب «دوق داركور»، وهى الآراء التى طرح نقيضها تماماً فى كتابه «تحرير المرأة»..

٣ - استياء المصريين من الغرب بصفة عامة بمدنيته، ونظمه الاجتماعية، والتى كان يمثلها الاحتلال الإنجليزى طيلة ١٨ عاماً دون أمل فى تحقيق الإنجليز لادعائهم أن وجودهم بمصر يعد احتلالاً مؤقتاً، مما حدا بالمصريين بالتمسك بعاداتهم الموروثة، حتى كرهوا تعليم البنات، والتمسك بحجاب المرأة فى البيوت، وخارجها، كشىء من التمسك العنيف بالجذور، والتشبث بالموروث، وتعنيف من أراد غير ذلك، متهمين إياه بمجارات الاحتلال..

ولذا يرجح د.محمد عمارة فى كتابه «قاسم أمين وتحرير المرأة» أن تكون هذه الآراء قد كتبها الشيخ «محمد عبده»..

يقول محسن محمد فى عدد الجمهورية الأسبوعى الصادر يوم ١٥ من سبتمبر ٢٠٠٥:

-«اعتبرت الجمعيات النسائية فى العالم أن المرأة تحررت حقيقة لا يوم حصلت على حقوقها

obeikandi.com

الدستورية للتصويت، والترشيح فى البرلمان؛ بل يوم ظهرت حبوب منع الحمل، فالمرأة – يومئذ - أصبحت صاحبة الحق الوحيدة فى التصرف فى جسدها، تملك أن تحمل، وتلد، وتملك أن تمتنع عن ذلك بإرادتها وحدها سواء عرف زوجها ، أو أخفت عنه»..

فى أحدث بحث علمى أثار سخط أصحاب المحلات، والتجار - الإنجليز خاصة - نشرته «المجلة الطبية البريطانية» فى صيف ٢٠٠٤ يحذر السيدات، والفتيات صغيرات السن من ارتداء الملابس القصيرة، والعارية خاصة فترات النهار لاحتمالات إصابتهن بمرض عضال يصيب الجلد وهو «الميلانوما الخبيثة» يعد من أندر أنواع السرطان، والمصابات به فى تزايد مستمر خاصة من هن فى مقتبل العمر..

ويبدأ المرض بإصابة الساق المعرضة لأشعة الشمس فوق البنفسجية فترة طويلة، فيبدأ بتكوين بقعة صغيرة سوداء اللون متناهية الصغر فى الساق، أو القدم حيث لا تفيد الجوارب الشفافة، أو الثقيلة فى الوقاية منه، ثم تبدأ البقعة فى الانتشار فى أماكن مختلفة؛ حتى تصل إلى الغدد الليمفاوية بأعلى الفخذ فتغزو الدم، وتستقر بالكبد لتدمر خلاياه، وتوقف عمله، أو تستقر فى العظام، أو الأمعاء، أو الكليتين، وينتقل المرض أيضا إلى الجنين فى بطن الأم الحامل، ولا يمثل العلاج بالجراحة فرصة للنجاة كباقى أنواع السرطان حتى إنه لا يستجيب للعلاج بجلسات الأشعة..

أفكار سيمون دى بوفوار كمدرسة لدعاة حركة تحرير المرأة:

ولدت «سيمون دى بوفوار» فى فرنسا سنة ١٩٠٨ وهى رائدة الأفكار التى يتبناها، ويرددها كل المتعصبين لجنس المرأة، تقول فى كتابها «الجنس الآخر» سنة ١٩٤٩:

-«المرأة لا تولد امرأة؛ بل تصبح امرأة، بمعنى أن المجتمع هو الذى يضع المرأة فى قالبها الأنثوى، وليست الطبيعة، أو البيولوجيا»..

وهى تردد ما قاله «سيجموند فرويد» من قبل «Anatomy is destiny»، وجاء علم الوراثة الحديث ينفى ما قاله هذا، وذاك؛ مؤكدا أن الصفات الجنسية موزعة بين طرفى البشر الرجل، والمرأة، كما نادت بهذه الأفكار أيضا كاتبة سابقة عنها ولدت بإنجلترا عام ١٨٨٢ تدعى «فرجينيا وولف»، وقضت أيامها الأخيرة مع المرض النفسى حتى ماتت منتحرة سنة ١٩٥٤..

عرفت هذه المرأة كإحدى دعاة حركة تحرير المرأة من حملتها ضد الزواج، والأسرة كنظام اجتماعى كنتيجة «لعقدة الذكورة»، والنظرة القديمة إلى الجنس، والثورة على كلمة أنثى، ونظرة الصلة بين الجنسين كصلة تفضيل، لا تكميل، وتتمحور آراؤها فى هذا الشأن حول هذه الأفكار:

- الزواج نظام اجتماعى فاشل(الرغبة من التحرر من تبعات الزواج، ومسئولياته، أو السأم من الحياة الزوجية)..

- الزواج يقضى على شخصية المرأة، ويحيلها إلى كائن تافه، عديم الأهمية..

- اكتمال نمو المرأة الجسمى، والنفسى لا يكتمل إلا بالأمومة؛ لذا يجب السماح للمرأة بالفصل بين حياتها الزوجية، وحياتها الجنسية(المصلحة الفردية تغلب مصلحة النوع)..

- الزواج يقتل الحب..

- الزواج ما زال هو المستقبل الوحيد الذى ينتظر المرأة، وأن علاج هذا الحال لا يكون إلا بمنح المرأة حرية اقتصادية، وجنسية تجعلها على قدم المساواة مع الرجل..

- انخفاض مستوى المرأة العقلى، والاجتماعى بسبب انحصارها فى دائرة ضيقة لا تخرج عن أعمال التدبير المنزلى، والحياكة، والطبخ، والتعامل مع الأطفال، والخدم..

- تعيش المرأة فى هم مقيم، وحياتها سلسلة من الانتظارات؛ انتظار الحب، وانتظار الزواج، وانتظار ولادة طفل، فهى تنتظر من الرجل أسباب حياتها، ومبررات وجودها..

حقوق المرأة:

يرى العقاد فى كتابه «هذه الشجرة» أنه ليس من المهم أن تتساوى المرأة مع الرجل فى الحقوق، والواجبات، ولكن المهم أن تكون حقوقها مساوية لواجباتها؛ بمعنى أن تكون لها مثل ما عليها كما نص كلام الخالق:

-«ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة» البقرة(٢٢٨)..

وهذه الدرجة ينفرد بها الرجل دونها، وهى درجة الإشراف على الحياة العامة، ودرجة العدل عند التفرد بحق تعديد الزوجات، والمخالفة التى يراها العقاد فى الجنسين تساير فطرة الله التى فطر الناس عليها، ونوه عنها فى القرآن الكريم بقوله:

obeikandl.com

-«وما خلق الذكر والأنثى(٣) إن سعيكم لشتى(٤)» الليل..

نقل الشيخ محمد الغزالى فى كتابه «قضايا المرأة» عن «مستر جاك سترو» المتحدث الرسمى لشئون التعليم بحزب العمال البريطانى قوله:

-«وهناك جهل شبه تام بدور المرأة فى اللاهوت الإسلامى، وفى تاريخ الإسلام نفسه، وعند التأمل نرى وضع المرأة المسلمة أهم من وضع المرأة اليهودية، أو النصرانية فى الأيام الماضية، ثم إن النبى محمدا أعطى النساء حق الإرث فى كل الممتلكات قبل أن تفعل ذلك الحكومة البريطانية بثلاثة عشر قرنا»..

وقد ذكر الغزالى هذا فى معرض حديثه عن أوضاع المرأة فى الإسلام المستقاة من أصلى التشريع «القرآن»، و«السنة»، والتفسيرات التى وضعها الشراح ليضعوا المرأة فى قوالب عصورهم المضطربة، وتقاليدهم المتوارثة دون استلهام روح الدين الصحيح، وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم التى وصفته زوجته السيدة عائشة بأنه كان «قرآنا يمشى على الأرض»، فيقول مثلا أن النبى أوصى أن تذهب النساء إلى المساجد تفلات، أى غير متعطرات، ولا متبرجات، ولكن القسطلانى فى شرحه للبخارى يرى أن تذهب إلى المساجد بثياب المطبخ، وفيها روائح البقول، والأطعمة، ويرى غيره ألا تذهب بالمرة على خلاف قول النبى، وكأنه لا يعجبه..

ويرى الغزالى أيضا أنه فى كل عصر توجد نسوة نوابغ متقدمات قارئات فقيهات جعلن بيوتهن مساجد عامرة بالخير «فأم ورقة » أمرها النبى صلى الله عليه وسلم أن تؤم أهل دارها كما روى الصنعانى عنها فى الحديث، وهل تحتفى المرأة بدين يحرم عليها الكتابة كما روى الحاكم فى حديث المستدرك، أو حديث صاحب الزوائد أن المرأة لا ترى رجلا، ولا يراها رجل، وغيرها من الأحاديث الموضوعة، والمتروكة التى حكمت بها المرأة قرونا وصلت بها إلى قمة الجهل، والخرافات فلم تظهر بعد صدور الإسلام العالمات المتصوفات، وراويات الحديث الشريف، تلك الفترة التى شهدت فيها المرأة «بيعة العقبة»، وكانت تصلى الصلوات الخمس بالمسجد، ويشاركن فى معارك النصر، والهزيمة، ويأمرن بالمعروف، وينهين عن المنكر..

تولت الصحابية «السمراء بنت نهيك الأسدية» الحِسبة(تشتمل على شئون الأسواق التجارية) بمكة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، كما تولت الحسبة فى عهد عمر بن الخطاب «شفاء بنت بنى عدى»، وهى ثانى امرأة فى الإسلام تتولى شئون الحسبة، والأسواق..

واجه الدكتور طه حسين معركة نشبت ضده بعد أن أذن لعدد من الطالبات بدخول كلية الآداب عندما كان عميدا لها، يقول قاسم أمين فى كتابه «تحرير المرأة»:

-«سبقت الشريعة الإسلامية كل شريعة أخرى فى مساواة المرأة بالرجل؛ فأعلن الإسلام حريتها، واستقلالها يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند جميع الأمم، ومنحها كل حقوق الإنسان، واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل فى جميع الأحوال المدنية، من غير أن يتوقف تصرفها على إذن أبيها، أو زوجها، وهذه المزايا لم تصل إليها حتى الآن بعض الغربيات»..

ليس للمرأة عندنا وزن ثقافى، ولا سياسى، ولا دخل لها فى برامج التربية، ونظام المجتمع، ولا مكان لها فى صحون المساجد، ولا ميادين الجهاد، وإن كان لا تسلط الأضواء إلا على الراقصة، أو الممثلة، أو عارضة الأزياء، وكأن لا دور للمرأة فى حياتنا إلا الإغراء، وإثارة الغرائز.

من هنا كان ظهور الحركة النسائية مقترنا بحركة العمال للاستحواذ على السلطة، فاحتضنت حركة النساء، ومبدأ التساوى مع الرجل فى حقوق، وواجبات العمل..

لقد كان الهجوم الشامل الذى قوبل به كتاب قاسم أمين عن تحرير المرأة من قبيل البديهات فى مجتمع إقطاعى يحتمى بنصوص دينية استخلصها لهذه الطبقة رجال دين موظفون لديهم، وهى الطبقة التى كادت تخرج من عصر الجوارى؛ بل كان العصر مازال يحتفظ فيه البعض بالجوارى، فجاءت دعوة قاسم أمين بعد انتهاء هذا العصر لتجرد الرجل مما بقى لديه من حريم(أكثر من زوجة)، ويضع حدا للطلاق المتكرر، وهما من أهم القضايا التى ناقشها فى الكتاب، وهوجم من أجلها، أما الحجاب وهو القضية الثالثة فمعناه سفور المرأة، وقد توجس المهاجمون من الفكرة لأن السفور ليس ماديا كما قصد إلى ذلك قاسم أمين؛ بل من الممكن تخطيه إلى السفور المعنوى فى الروح، والأفكار..

قسم د.محمد عمارة تراث العرب، والشرق من حيث نظرته للمرأة إلى تيارين رئيسيين متمايزين، فإذا وجدت الحركات الفكرية العقلانية، أو الثورية التقدمية وجدنا للمرأة دورا ملحوظا فى صفوفها، كما يشوب حديثهم الكثير عن المرأة، ودورها فى الحياة كما نلاحظه لدى المعتزلة، والخوارج، وبعض فرق الشيعة، وإذا وجد القهر، والتخلف حيث السهم الأكبر له تبرير مظالم الحكم، وإضفاء الشريعة على تصرفات المستبدين بالسلطان كان هناك أيضا الاحتقار للمرأة على أنها مخلوق جميل، وضعيف، وسلعة خلقها الله زينة لإمتاع الرجال، وهو ينسب التيار الثانى للعصور المملوكية، والعثمانية..

لقد كان نظام المماليك، ومن ثم الإماء، والجوارى الذى غاصت فيه الدولة الإسلامية إبان حكمها وبالا على المرأة؛ متخذين من الحروب، والفتوح حجتهم للحفاظ، والإبقاء على هذا النظام الذى قوضه القرآن، وجاء عليه من القواعد بكافة أحكامه تقريبا، فلكى يتم التمييز بين الأمة، والحرة، وبين العربية الأصيلة، والجنسيات الأخرى وضعت عليها القيود، وتركت الحرية للأمة، والجارية، ودون العربية؛ فأقيمت القلاع كقلاع الحرب، وحوصرت المرأة داخل الجدران السميكة بغرض الصيانة، والمحافظة، وعدم اختلاطها بالجوارى خاصة خلال حكم الدولة الأموية التى كانت تتعصب لكل ما هو عربى حتى النساء، وبالتالى كثر الجوارى، والمماليك الذين استعانت بهم الدولة العباسية فيما بعد، وحتى عندما سمحت الدولة العباسية لبعض العناصر غير العربية بالاشتراك فى الحكم كالبرامكة لم تتخل نهائيا عن هذا المبدأ بدليل نكبة البرامكة على يد هارون الرشيد عندما علم بزواج أخته العباسة بجعفر وزيره، وزعيم البرامكة(أحد الأسباب)، وقد كان هذا هو مبدأ الدول المحاربة عبر التاريخ كالرومان - مثلا - لتأمين نسائهم، فجاء هذا النظام وبالا على المرأة عبر التاريخ، وهذا النظام من وجهة النظر البيولوجية ليس صحيا لمن يحيا فيه لأنه يتنفس تنفسا لا هوائيا فتصاب البيئة كلها بالعفونة بمرور الوقت، وإلصاق هذا النظام العفن بالإسلام يعتبر تجنيا عليه، وجهلا بالتاريخ..

خلقت المرأة من أجل الرجل، وهى لم تخلق من عناصر الأرض مثله، ولكنها خلقت منه، وله، وعليها دارت صراعات الرجل من بدء الخليقة فأول قتال بين بنى آدم كان من أجل المرأة، ثم تطور الرجل ليخرج من حيز المادة التى كلف بها لإشباع الجسد من طعام، وشراب، وجنس عندما انتقل إلى المجتمع الزراعى الإنتاجى بعد أن كان جامعا، ومستهلكا للثمار، ثم صائدا، ومقتنصا للحيوانات، والنساء حيث الاستقرار، والأرض فأصبحت المرأة غير مطلوبة فى حد ذاتها بقدر ما كانت وسيلة لزيادة عدد الأفراد اللازمين للحرث، والزراعة، وجمع المحاصيل، ونقلها، وتخزينها..

ثم نشأ مبدأ تقسيم العمل فأخلد الرجل إلى شىء من الراحة ليتجه بتفكيره إلى ما حوله، وسرت روحه فى الكون تستكنه أسراره، فنشأ التفكير الفلسفى الذى أخذ حيزا من التفكير فى المرأة، واشتعل فى نفسه الصراع من أجل قيم أخرى كالأرض، والثروة، والماء، وغيره؛ فكرس المرأة معملا لتفريخ الرجال من أجل الصراع، ويبدو أن المرأة قد أسعدها هذا الدور إلى جوار الرجل، بل تخطته لتعمل بجانبه فى الزراعة يدا بيد، وذابت المرأة من حيث لا تدرى فى كيان الرجل، وذاب الرجل من حيث لا يدرى فى كيان الحضارة، والدولة، والنظام، والسهر عليهم، وحمايتهم بكل الوسائل فتتبعه المرأة

لدعم الأمن، والاستقرار؛ فإذا ما تزعزع الأمن، والاستقرار صارت سبية وطن، وعاهرة لا تملك من أمرها شيئا..

تجتاح أوروبا منذ بداية الستينيات حركة عرفت باسم «Feminism»، أو الحركة النسائية، وهى تدعو لتحرير المرأة من سطوة الرجل، والاستقلال عنه، ونبذ فكرة الزواج، وإنجاب الأطفال وهو ما نادت به بعض الروائيات الإنجليزيات من أمثال «إنجلا كارتر»، و«مرجريت درابل»، كما ظهرت أفكار تدعو إلى التشبه بالرجل فى مظهره، وحركاته، وتصرفاته، ومنها التدخين، أو رفض المرأة لأعمال البروتوكول التى تدعو إلى مبدأ «ladies first» فترفض أن يفتح لها الرجل باب السيارة لتركب قبله، أو يسحب لها الكرسى، ويجلسها فى أى مكان عام قبل أن يجلس هو، أو مساعدتها فى ارتداء معطفها، أو مد يده لها فى الصعود، والهبوط..

وتنتقد د.نوال السعداوى مقالا قرأته فى إحدى المجلات يقول إن المرأة ناقصة فى العقل بسبب الهرمون المؤنث فى جسمها، ولأن مخ الرجل يزن أكثر من مخ المرأة، وقد ظلت تقرأ مثل هذا الكلام أكثر من نصف قرن، وكانت تتصور دائما – على سبيل المقارنة - أن عقل الحمار يتفوق على عقل الرجل لأنه أكبر، وأثقل وزنا..

ومن أمريكا ترصد الكاتبة تراجع الأصوات المطالبة بتحرير المرأة من القهر المزدوج(الاقتصاد، والجنس) بسبب الضغوط المتزايدة من قوى اليمين الصاعد تحت شعارات سياسية، أو دينية، وهناك أيضا الأصولية المسيحية التى تدعم النظام الرأسمالى الطبقى الأبوى(كما كانت تدعمه أيام سلطة البابا فى روما إبان عصر النهضة)، وتدعو إلى عودة المرأة إلى حظيرة البيت، والدين كما تتبنى الأفكار العنصرية المعادية للطبقات الفقيرة، والبشرة السوداء؛ فهل تحرص المرأة على ذلك الدين الذى ساوى بينها، وبين الرجل؛ كما جنبها المسئولية كى تتفرغ لعملية التعمير، والاستمرار البشرى على الأرض:

-«ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة» البقرة(٢٢٨)..

ولا نرى فى الدعوة إلى تحرير المرأة سوى الترف الفكرى الذى قام عليه أفراد من أبناء البيوتات الراقية نقلوها عن تلك المرأة الكادحة مثل الفلاحة التى ترافق زوجها فى زراعته، وحصاده، وتلك المرأة الكادحة فى المدينة ممن يبعن فى الأسواق، ويتجولن بسلعهن فى البيوت(وكأنهم يحسدونها على كدحها، وشقائها)، فدعوة تحرير المرأة ليست سوى نعرة أرستقراطية، وترفا أخلاقيا من بذخ الأغنياء، والصفوة فى المجتمع، وما كان نداؤهم، وتحمسهم إلا مللا من نسائهم الخاملات فى القصور،

والبيوتات المتزوجات، أو غير المتزوجات اللاتى كان أكبر عمل يقمن به هو التثاؤب، وهذا لا يحدث إلا إذا قمن أصلا من النوم، والحياة الفارغة التى كن يعشنها، والكسل المرضى، كما جاءت فكرة حجب المرأة فى البيوت أصلا من ذلك الرجل الذى نفض يده من شئون الحضارة، والتطوير الذى هو سنة الحياة، وركن إلى الدعة، والكسل، وحياة الترف بجوار الحريم، فشيد لهن القصور، وخصهن بالأجنحة المعزولة ليقتنى منهن ما يروق له كما يقتنى التحف، والأثاث..

يقول قاسم أمين فى كتابه «المصريون» إنه كان لا يجوز للرجال دخول أماكن السيدات، والعكس، ولكن المشكلة فى كتابه «تحرير المرأة» أنه سمح لنفسه بدخول «الحرملك»، أو مكان السيدات، وهو قد كتب كتابه وعينه على سيدات الطبقة العليا من المجتمع، وبعض المتوسطة اللاتى يتطلعن بعاداتهن نحو سيدات الطبقة العليا، ولم ينظر لحال سيدات الطبقة الدنيا من العامة، والمعيلات البائعات، والكادحات من أجل لقمة العيش، وقد كتب عن مشكلة أخرى ألمت بالمجتمع المصرى الذى تعلم، وتفرنج فجأة فى عهد محمد على، والخديوى إسماعيل فظهر النوابغ، والمتعلمون، والفنيون فى الشئون العامة، وتعلم بعضهم فى الخارج فرأى المرأة الأوروبية تختلط به، وتناقشه، ولما رجع إلى مصر، وأراد أن يتزوج وجد المرأة المصرية من الطبقة العليا، والمتوسطة التى تناسبه فى ثبات عميق، فكيف يتزوج إلا من ابنة القصور التى تعلمت داخل القصر، أو من شركسية، أو تركية(كانت نسبة التعليم مرتفعه فيهن آنذاك)، أو أوروبية..

لم يأت «قاسم أمين» بجديد بشأن تعليم المرأة، فقد سبقه «رفاعة الطهطاوى» بكتابه «المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين»، كما أنشأ «زكى مبارك» المدرسة «السنية» لتعليم البنات، وأنشأ «محمد على» من قبل مدرسة «لتعليم التمريض»، وتم كل هذا فى صمت - ربما لم يحسه أحد - بينما سفهت أفكار قاسم أمين عقول الأمة فى هذا الشأن فثاروا عليه..

نشرت الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ٢ من مايو ٢٠٠٣ تبشر القراء ببداية الحرب ضد «عنترة»، و«أبوزيد الهلالى» تحت عنوان «تنظيم نسائى» يعيد كتابة التاريخ الذى شوهه الرجال، وهن يشعرن بجسامة المسئولية تجاه نساء العرب، والعالم، فيردن تغيير عناصر القصص الشعبية التى تميز الرجل، وتجعل للمرأة أدوارا تقليدية، وأدوار الشر بما يعتبرنه تمييزا ضد المرأة حتى إنهن يردن تغيير حكايات ألف ليلة وليلة؛ ذلك التراث الشعبى العربى الذى يفخر به العالم، ولكنه تطرف الهوس الأنوثى نحو التحرر، فى مقابل تطرف الهوس الدينى نحو الانغلاق..